الحب والقتل

للكاتب الفرنسي أرمان بيكير

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

قال إدوار ديبون ، وكان رفيق في المدرسة الثانوية ، وقد ضرب الدهر بيننا أكثر من ثلاثين عاماً :

من شأن الحزن أن يرجع بصاحبه إلى العصر الماضي ، فيُشهده في عالم الخيال كل نعمة كان في سالف الأيام باشرها ، وكل مسرة لابسها ، وكل لذة خالسها ، وكل غبطة عاقرها ، وكل متعة لامسها . ويطيل به الوقوف على أخيلة تلك اللذات والمطايب ، ويكثر به التلوم على أشباح هاتيك المباهج والمطارب ، مبدياً ما بها من طريف المحاسن ، مما كان قد خفي على المرء منها أيام يباشر حقيقة هذه النعم واللذائذ ...

وكذلك الذكريات تذيع بعد افتقاد الأشياء للوهم ، غوامض أسرار كانت أيام وجدانه تغيب عن الفهم ، فلا يدركها الفهم ولا يحيط بها العلم . فمن ذلك ترى يا صاحبي أن الحزن تخيم من فوقه اللذة ، وأن البلاء الذي نحتمله إذ ذاك لا شبه له بالألم المطلق الذي لا يكون قط إلا بغيضاً منكراً ، والذي ما نزال نبتغي الخلاص من ربقته

فقلت له : لم يكن هذا عهدي بك يا ادوار ، فقد كنت باقعة المرح ، ومقدمنا في الأفراح ، وقائدنا إلى كل لهو بريء . فما الذي طرأ عليك حتى غيّر طبعك وبدّل خصالك وأصبحت تنعت الماضي نعت المصاحب ، وتندب بلواك وتبكي شجوك وأشجانك ... ؟ أما أنا فلا أحب إدامة الإطراق والتفكير والهم ، ولا الاسترسال مع الخواطر المحزنة والاندفاع في تيار الهواجس المترحة ، وشأني أن أفرق بين الخاطر المحزن وأخيه بالفكرة السارة ، والذكري المفرحة .

فقال إدوار :

— إن هذه الخواطر الحزينة التي تعمل فطرتك الطروب على مطاردتها ، مع ما طويت عليه من حزن ، واحتوته من شجن ؛ لتكسبني لذة وتورثني متاعاً . ومنذ لعبت يد الحوادث بمقدراتي ، وأوردني حسن الظن بالدنيا وناسها ، ووفرة الثقة بصدقهم وإخلاصها ، والانخداع بظواهر الأمور ، سجلّ العناء والألم ، صبوت للحزن ، وتاقت نفسي إلى الأسى ؛ فسرّحت خاطري في أودية الذكرى ، وإن من الحنين ما يستحب ، ومن الدموع ما يستعذب

تعريف بالقصة

« ارمان بيكير Armand Bickert كاتب فرنسي ليوني (نسبة إلى ليون) المولد والنشأة . درس القانون ودخل الجندية ، وخاض غمار الحرب العظمى وتخصص في كتابة القصص التي تكشف عن نفسية بعض رجال الجيش وقد أكسبته دراسته رقة في الأسلوب ودقة في الوصف . وقد ترسم خطى بعض كتاب الروس ، لأنه عكف على تمحيص ما طالعه من مؤلفات تورجنيف وتشيكوف وتولستوي ودوستويفسكي وأندرييف . لذا نرى أدبه متأثراً لأبعد مدى بالغموض والخفاء والحزن والطيرة . وقد نال جائزة فيمينا Femina بعد أن نشر تلك القصة التي دلت على علو كعبه ، وهو يرى في المرأة من التقلب وعدم الوفاء ما يجعلها أداة القدر في السخرية من الرجال وعدم البقاء على الحب ولو كان للحبيب الأول »

فقلت له : لقد تركتك وقد أحرزت إجازة التعليم الثانوى من «لسيه لوى تريز» وكنت تنوى أن تتم دراستك فى إيكول سنترال ، فقد كانت مواهبك الرياضية جد متألقة

أجاب : نعم ... ولكن والدى ألحقنى بكلية سان سير الحربية ، لأن لأسرتنا تقاليد من عهد بونابرت ، وكان لى جد وعم وخال حملوا السيوف وعرضوا الرماح ، وخاضوا غمار الحرب تحت لواء الأمبراطور نفسه ، فلم أعص له أمراً . وبعد أن تخرجت برتبة الملازم فى سلاح المدفعية ، تمهيداً لترقيتى إلى صفوف أركان الحرب ، عينوا إقامتى فى بلدة « آنسى » ولعلك يا أخى لا تعلم كيف تكون عيشة الضباط فى الجيش ، ففى الغداة التدريب العسكرى وامتطاء صهوة الجياد ، ثم الغداء مع القائمقام فى مطعم يهودي ، وفى العشى الراح والسمر والميسر فى الأيام الأولى من الشهر ، عند ما تكون أكياسنا عامرة بالمرتب . ولم يكن فى بلدة آنسى فى ذلك العهد بيت واحد مفتوح ، ولا فتاة واحدة صالحة للزواج ؛ فكان دأبنا التزاور ، وأن تتلاقى فى مثوى أحدنا ، حيث لانبصر إلا وجوه الرفاق ! ولم يكن يخالطنا لارجل واحد من الملكيين (هكذا كنا نسمى كل شخص خارج الجيش اعتزازاً بأنفسنا وازدراء بالآخرين !) وكان هذا الرجل الملكى يناهز الثلاثين ، فعددناه — لحداثة أعمارنا — شيخاً كبيراً . يا للغرور ! وكان يمتاز علينا بفضل حنكة وتجربة ، وكان لما انفرد به من طول الصمت وعمق السكوت وعبوس الوجه ، وذرابة اللسان (حين يسمح لنفسه أن يتكلم) ومرارة التهكم ، وقع فى نفوسنا وأثر بليغ . وكان يخيل إلى أدمغتنا الفتية الطائشة أن لهذا الرجل ، لاريب ، نبأ خفيًّا وشأناً غامضاً ؛ وأن سرًّا مجهولاً يحيط بحياته . وأظنك يا أخى لا تزال تذكر دروسنا فى علم النفس ، فأول وأقرب مايبدو لنا من خصائصها هو الوجدان المسمى بالتطلع ، والميل إلى استكشاف الجديد والتلذذ به ؛ وقد علمنا أن كان له سابق خدمة عسكرية فى الهوسار ، حيث أبلى بلاء حسناً . ولم يعرف أحدنا العلة التى من أجلها ترك الجيش وهو فى مقتبل العمر ، وطاب نفساً بالاستتار فى آنسى ، حيث عاش عيشة جمعت بين الفقر من ناحية ، وبين التبذير والإسراف المهلك من ناحية أخرى ، فكان لا يزال يسير على قدميه ، لا يركب قط مطية ولا ينفك فى كساء رث قديم ؛ ولكن طعامه كان بين أصحابه مشاعاً مشتركاً ، وكان خوانه لإخوانه مستباحاً ، وساطه للدانه منتهكا ... لا أقول إن مائدته كانت رداحاً ، ولكن الخمرة كانت تفيض من دنانه فيضاً وتهطل من أقداحه هطلاً . وكان أشد ولعه وشغفه بالرماية ، ينصب الأهداف ولا يزال يرميها بطلقات بندقيته ... وقد بلغ فى الرماية مبلغاً لم يُسمع به ، ولا يكاد يصدقه إنسان ! وكان حديثنا كثيراً ما يدور على النساء والقمار والمبارزة ؛ ولكن سيلفان (وهذا اسمه) لم يكن يشاركنا فى هذا الحديث قط ! وكنا إذا سألناه : « هل بارز قط إنساناً ؟ » . أجابنا بإيجاز وجفاء : أىْ نعم قد فعل ذلك ! . ثم يأبى ذكر التفاصيل فاستنتجنا أنه لابد أن يكون قد قتل رجلاً فى مبارزة ، وأنه يحمل دمه المسفوك فى عنقه ، ويشد وزره وإثمه إلى نياط ضميره .. وسهرنا ليلة للمقامرة وجلس ليوزع الورق بعد أن وضع على المائدة الخضراء ألف فرنك ذهباً . وكان من عادة سيلفان

إذا تصدر مجلس الميسر أن يلزم تمام الصمت ، فلا يجادل ولا يخاصم ، ولا يلج باب حوار أو مناقشة . وكان بيننا في تلك الليلة ضابط جديد ، ورد حديثاً فرقتنا فأتى في خلال اللعب بهفوة غير مقصودة بأن زاد رقماً واحداً في حسابه . فتناول سيلفان الطباشير في سكوت سكسوني وقيد المدد على صحته كعادته ، وحسب الضابط الجديد المخطىء أن سيلفان أخطأ فشرع يناقشه الحساب ، فلم يحفل به صاحبنا واستمر يوزع الورق دون أن يعيره التفاته ، فنفد صبر الضابط . وتناول الأسفنجة ومحا بها ما ظنه خطأ . فتناول سيلفان الطباشير وصحح الحساب ثانية ، وكان الضابط قد لعبت الخمرة برأسه وأحمت الدم في عروقه ، وهاج الغيظ عواطفه ، وأثار خاطره ضحك القوم ، فطار الغضب في دماغه وعدها على رب الدار إهانة ، وأمسك بشمعدان نحاسي كان على المائدة وقذف به رأس مضيفنا ورئيس منضدة اللعب فراغ الرجل وأفلت ، وقد كاد الراجم يفلق جبهته كفلق النوى .. عند ذلك تولانا الذعر والروع والدهش ، ونهض سيلفان في سكينته وهو يحرق أنيابه حنقاً وعيناه تتأججان غضباً ، ولكنه ملك زمام نفسه وأحسن القبض على لجام أعصابه المهتاجة في وقت لا يملك فيه أقوي الرجال مشاعره وقال للمعتدى : سيدى العزيز ! تكرم عليّ وتفضل بالانسحاب من اللعب ، واحمد الله أن هذا الحادث قد وقع في داري ! فانسحب الضابط وهو يقول إنه مستعد أن يبارز خصمه بأى سلاح يختاره . ولم يشكّ أحدنا في عاقبة هذا الأمر ، وحسبنا صاحبنا الجديد المتهور في عداد الموتى . واستمر اللعب دقائق معدودة ، وشهدنا انقباض صاحب الدار وضجره ، فانسحبنا واحداً إثر واحد . ومضت ثلاثة أيام ولم تقع المبارزة والضابط المعتدى لايزال على قيد الحياة فقلنا : أمن الجائز أن سيلفان لن يبارز خصمه ؟ إنه إذن لمولود من جديد ، وكأنه ورد سجل الأحياء ليومه . واقتنع سيلفان من الضابط بمعذرة واهية ، ثم صالحه وصافاه ، فسقط سيلفان في أعيننا معشرَ الضباط الشبان ؛ لأننا رأينا الجبن رأس المساوىء .

ولكن هنالك رجالاً يكفي مجرد النظر في وجوههم لأن تعتقد فيهم الشجاعة ، وكان من بينهم ذلك الرجل الغامض . وما برحت الأيام أن محت من صفحات أذهان رفاق ذكرى الحادث . واستعاد سيلفان نفوذه بيننا وسابق هيبته ، ما عدايَ أنا وحدى ؛ فقد زالت كرامته من نفسى ، وأصغرته وأنزلته حتى تنكرت له وجعلت أخجل من النظر في وجهه ؛ وآنست منه المرة بعد المرة أنه يهم بمفاتحتى ليشرح لى حقيقة حاله ، فجعلت أروغ منه إلى أن ملّ وانصرف . وما لي برجل أغضى على القذى ، واحتمل الإهانة ، وترك صحيفته ملطخة بالعار دون أن يحرك ساكناً لتنقيتها من تلك الوصمة ؟ وكنا معشر الضباط الفتيان نرى الشجاعة كبرى المحامد وعُليا المناقب وفُضلى الخصال ، وقد يجعلها بعضنا ذريعة إلى كل منكر ، وشفيعاً في كل وزر ومأثم ؟ !

وفى يوم من الأيام زارنا في ديوان الثكنات وقال : « أيها الأخدان إنه قد طرأ عليّ ما يوجب رحلتى من التو واللحظة . وإنى لمسافر الليلة وأرجو ألا تضنوا عليّ بتوا كاتى على مائدة الوداع في بيتى فإنها المأدبة الأخيرة التي أحظى فيها بشرف الاجتماع بكم كسابق عهدنا » فقبلنا دعوته ، وفى الموعد

المضروب لبيت دعوته فألفيت ثمّت كل إخواني ، وكان سيلفان في أحسن حال من الانشراح فسرى إلينا جانب من سروره وطربه ، وجعلت أباريق الرحيق تفض أختامها ، والدنان يتدفق مدامها . ولما همّ القوم بالانصراف أذن لهم جميعاً وقبض على يدي واحتجزني ، فلما خلا المكان من الجمع أجلسني إزاءه وقال لي : لعلنا لا نلتقي بعد اليوم ، فأرى قبل الفراق أن نتفاهم في أمر بيننا قد غشيه الشك واعتوره الغموض . لعلك عجبت من إمساكي عن مبارزة السكير الأحمق رودولف . على أن حياته كانت في قبضة يدي ، مذ جعل لي حق اختيار السلاح ، ولكن لو كنت أضمن حياتي كل الضمان لما أعفيته قط من المبارزة ، ولما ترددت لحظة في استلال روحه من بين جنبيه ، ولكن ليس من حقي أن أعرض حياتي للهلاك قبل الأخذ بثأر قديم وسبب ذلك أني قد لطمت على وجهي منذ ستة أعوام ، ولم أشف نفسي بعد من اللاطم الذي ما زال حياً يرزق

وما كنت ممن ينام عن الثأر حتى الموت . ثم جعل سيلفان يتحرك في مجلسه كالحائر القلق ، كمن به هم باطن وألم عميق ، ولم يبق في وجهه أقل أثر مما كان فيه آنفاً من الجذل والحبور ، وكانت صفرة لونه وبريق عينيه وكثافة الطباق المنبعث من غليونه وفمه قد أعارت شخصه هيأة الشيطان ، وصورة من صورة الجحيم ! وأخيراً تكلم فقال :

قد علمت أني كنت ضابطاً في فرقة الهوسار ، وكان الفسق والفجور والدعارة هي المذهب والعرف المألوف في أيامنا ، فكنت شيخ الفاجرين وإمام الفاسقين وزعيم أهل الفراغ والخلاعة ، فاتفق في بعض مجالسنا على الشراب أني ضربت برتو الشهير الذي قد تغني بذكره الشاعر الفريد ديفيني فصرت موضع الاعجاب ومحط التكريم ووصفني المشير ديزيريه في أحد تقاريره الرسمية بأني « أذى ضروري للجيش وبلاء لا بد منه » ، وانضم إلى فرقتنا فتى حديث من أسرة نبيلة ، ذو جمال وذكاء وفتنة ، فزعزع من مكانتي ، وتهدد سلطتي ، ولكنه شرع يخطب ودي فتلقيته بانقباض وجفوة ، فأحجم عني واستشعرت له نوعاً من البغض الكامن ، ولما رأيت حظوته لدى النساء ألحّ على الكرب وأكل الغيظ شغاف قلبي ، ثم التقينا في مرقص بدار سرى من أعيان أورانج ، وقد خصته ربة الدار — وكانت صديقة لي — بالحفاوة والعناية والملاطفة ، فدنوت منه وهمست في أذنه بلفظ جارح ، فثار عليّ ثورة الأسد ، ولطمني على وجهي ، فقبضت على قائم سيفي ، وأغمي على النسوة ، فافترقنا لنلتقي في الليلة نفسها بميدان المبارزة وكان الوغد إذ ذاك قليل الاكتراث بالموت ، فحدثت نفسي : « أية فائدة هنالك في انتزاع الروح من شخص لا يجعل للحياة شأناً ولا يقيم لطول العمر وزناً ؟ »

فقلت له : الظاهر أنك غير متأهب للموت الساعة وأراك تستعد للقاء صديقتك وما كنت عن ذلك بمانعك

فأجابني : إنك لا تمنعني من ذلك . وعلى كل حال فستبقى لك عليّ طلقة تطلقها متى شئت وسأبقى أبداً مستعداً للاستهداف لها تحت مشيئتك

فأخبرت الشهود أني لا أريد الاطلاق اليوم ، وبذا انقضت المبارزة وفقاً لقانونها [1] ثم اعتزلت

(١) وفقاً لقانون المبارزة لا بد أن يكون اللاطم أطلق وأخطأ

الأربعة فى مغانى باريس ومباهجها أمتع الروح والجسد بين غوانيها ، ولشد ما ندمت على أننى لم أستشره وأشركه فى أمرى ! فلعله كان ينهانى عن طيشى واندفاعى وقد جلبا سعادتى وشقائى ؛ فلما بلغنا ضاحية فوكويسون على مقربة من باريس استأذنت سيلفان أن أسبقه إلى العاصمة حيث كان يقطن خصمه فى بولفار دى نوايلس ، لأتعرف إلى الزوجين قبيل وصوله ، وأمهد السبيل لبلوغ أمنيته ، فقبل وقال :

— حسن ! سأتخلف كما أشرت ، فأنت كشافي وطليعتى ونذير الهلاك إليهما ، ولكن احذر أن تقع فى شباك جمال تلك الأنثى فتفسد علىّ السعادة التى تغذيني وهى اختطاف روح زوجها من بين جنبيه . فلم أعقب على فكرته بجواب واكتفيت بابتسامة حائرة رسمتها على شفتى يد الاشفاق والخوف معاً ، وإن كنت أتلهف تلهفاً وأتحرق تشوقاً لرؤية الزوجة التى ظننت أننى أسعى لإنقاذ بعلها من الموت المحقق . وكان سيلفان قد دلنى على معالم القصر ولم يبح لى باسم صاحبه

ولما بلغت القصر قادنى أحد الخدم إلى حجرة المكتبة ، ليعلن مقدمى ، وكانت الحجرة مزدانة بكل آلات الترف ، فالجدران مبطنة بقماطر الأسفار ، محلاة بالتماثيل والدمي ، وعلى صُفّة الموقد المنحوتة من المرمر المسنون ، مرآة عظيمة ، والأرض مفروشة بالدرابي والطنافس . وأخيراً فتح الباب ودخل رجل بهى الطلعة جميل الصورة يناهز الثانية والثلاثين من العمر فتأكدت أنه خصم سيلفان ورب الدار . فما كان أعظم حيرتى عندما تقدم إلىّ محتضناً يقبلني ! ! لقد كان هنرى بوردينوا كونت دى لاڤيسيل لاڤيه ، وصديقنا ورفيقنا فى المدرسة بنفسه ! فحاولت تسكين جأشى ، وزعمت لتبرير قدومى أننى عرفت مقره مصادفة ، فقدمت لزيارته . وجلسنا وأخذنا بأطراف الحديث ، فما لبثت أن وجدته كما عهدناه سهل الحديث ، عذب الكلام ، مرح الطبع ، خالياً من التكلف والتعمل ، فزادنى وحشة وهيبة وارتباكا . وكنت كلما هممت بمصارحته بسر زيارتى أرتج علىّ واعترانى خبال لا عهد لى به ، فلم تكن الخيانة من طبعى ، وإن كانت فى سبيل إنقاذ حياته ، وتخييب آمال ذلك الوحش الرابض المتربص فى فوكريسون ولا يلبث أن يظهر على مسرح تلك الحياة الهادئة ليورد ذلك الصديق الفريد والزوج السعيد موارد التلف ، من أجل صفعة ساخرة سقطت جريمتها بالتقادم . وتأكدت فى تلك اللحظة أن الحياة مأساة معقدة بعيدة الغور وإننا لا نعدو أن نكون ممثلين مسخرين لأدوارنا التى نتقن لعبها على الرغم منا

وإذا بالكونتيس قد دخلت بغتة فأسرع إلى احتشامى وخجلى فقد كانت مفرطة الجمال ، ناعسة الطرف ، فارعة القد ، فقدمنى إليها الكونت بأحلى عبارات الاعزاز والترحيب وهما لا يعلمان أننى نذير الموت . فقد كنت كلما أمعنت فى الحديث تضاءل أملى فى إنقاذ الرجل لما أعلمه من غليان الغضب فى قلب ذلك الجبار المنتقم المتبرم بالحياة ، المحروم من الحب . وأخذت أنظر إلى الجدران فاستوقفتني صورة تمثل مشهداً طبيعياً ولكن الذى أدهشنى من هذه الصورة لم يكن جمالها وبديع صنعها وإنما وجود ثقوب متجاورة فى أديمها على أثر طلقات نارية ، فقلت للكونت : تالله إنها لرميات مسددة !

فقال : أجل ، إنها رميات صائبة ! إنك لا شك تحسن الرماية مثلي

فسرني انتقال الحديث إلى لباب الموضوع ، وتمنيت أن أجد منه مدخلاً لقصدي وقلت :

— أحسنها بعض الشيء . إني أستطيع أن أقرطس بطاقة من بطاقات الزيارة من مسافة عشرين خطوة ، بشرط أن تكون الغدارة مما قد تعودت الرمي به

فقالت الكونتيس بلهجة المكترث بالموضوع : « حقًّا ؟ » ثم التفتت إلى زوجها وقالت :

— وأنت يا عزيزي أتستطيع أن تفعل ذلك ؟

فأجاب : لعلي فاعل ذلك يوماً ما ! وعلى كل حال سأحاول هذا . على أني لم أكن في أيامي السالفة بالرامي الأخرق ولا الطائش السهم ، ولكنه قد مضى الآن أربعة أعوام على آخر عهدي بالرماية . فأسقط في يدي ، لأنني افترضت أنني قد أصل في مفاوضتي مع الوحش المتربص في آكام فوكويسون إلى تبادل طلقتين بدلاً من أن يدفع الكونت حياته ثمناً للطلقة المعهودة الباقية ديناً في عنقه ، وأن يكون هو البادئ بالطلقة فيصرع سيلڤان قبل أن يتمكن من إزهاق روحه . ولكنني تجلدت وقلت :

— حقًّا ؟ إذا كان الأمر كما قلت فما إخالك قادراً على أن تصيب بطاقة على مسافة عشرين خطوة فإن الرماية — كما لا يخفى — تحتاج إلى التدريب اليومي ؛ وهذا ما نعلمه بالخبرة ، فإن أهملنا التمرين فقدت يدنا الحذق والتسديد . وقد أذكر أن أمهر من رأيت من الرماة كان لا يزال يتمرن كل يوم ثلاث مرات قبل تناول غدائه وكان قد تعود ذلك تعوده الأكل والشراب

فقال الكونت : وماذا كان من مهارة ذلك الرامي وحذقه ؟

قلت : لقد كان وحقك ، ربما أبصر بالذبابة على الجدار — إنك تبتسمين يا كونتيس كالمرتابة في صحة قولي — أقول : لقد كان ربما أبصر بالذبابة على الجدار فيصيح بخادمه قائلاً : « جوزيف هات لي المسدس » فيأتيه جوزيف بالمسدس فيطلقه فاذا الذبابة قد انسحقت على مكانها ؟

قال الكونت : هذا مدهش ! وماذا كان اسم هذا الرجل ؟ . قلت : سيلڤان

فصاح صديقي منتفضاً في مجلسه : سيلڤان ؟ أتعرف سيلڤان ؟

قلت : كيف لا أعرفه يا صاحبي وقد كان صديقي الحميم ولا يزال ؟ لقد عاشرنا عشرة الأخ إخوته ، على أنه قد مضى الآن أسبوع على آخر عهدي به أوَ تعرفه أيضاً ؟

قال : إذن لا يزال على قيد الحياة !

قلت : وعلى قيد عشرين ميلاً من باريس وأظنه يقيم في ضاحية فوكويسون

فامتقع وجه الرجل وجمد في مكانه كأنه أصيب بطعنة نجلاء في ظهره . فأدركت الكونتيس ماطرأ على زوجها من التغير وقالت : أتعرفه أنت أيضاً يا عزيزي ؟ فقال : أجل أعرفه حق المعرفة ! ألم ينبئك قط بنبأ عجيب وقع له في حياته ؟

قلت : أتشير يا هنري إلى حادثة اللطمة التي أصابه بها رجل نذل خسيس في بعض المراقص ؟ (قلتها لأبعد عن ذهنهما دنوهما من الخطر وأثبت لهما جهلي المطلق بما ينتظر الزوج)

فقال : ألم يصرح لك باسم هذا النذل الخسيس ؟

قلت : كلا إنه ما ذكر لي اسمه قط !

فابتسم الكونت ابتسامة ساهمة حزينة وقد غادره بشره ، وحدثته نفسه بمض ما وراء الأكمة وقال وقد عراه أشد الاضطراب والانفعال : أنا هو ذلك النذل

فقلت متصنعاً الأسف : معذرة ياعزيزي وعفواً فقد أخفى عني الأمر

وكانت المائدة قد أعدت وقال الخادم في أدب : «إن الطعام ينتظر آكليه ياسيدتي الكونتيس [١]»

فنهضنا واكتفيت في هذه الليلة بهذا القدر من الكلام الذي هيأته لي المقادير ، وقلت في نفسي وأنا أقوم متلكئاً لأجلس على خوان هذين الزوجين :

إلى هنا ينتهي مشهد من مشاهد تلك الرواية ، وإن الرواية لم تتم فصولاً . وقضيت في ضيافتهما أسبوعاً وأنا لا أملك أن أفاتحهما في نبأ الكارثة التي سترميهما بها فوكريسون

وفي ذات مساء خرجنا على خيل لها نتنزه في غابة بولونيا وشرع جواد الكونتيس يمرح ويتموج في عطفيه ويتنزى ، ولعله لمح فرساً راقه منظرها ، وكنا في موسم الربيع عند ما يحلو للذكران من سائر المخلوقات أن تعشق لتنتج فتضاعف عدد الضحايا من الطير والحيوان والإنسان . فذعرت الكونتيس وترجلت وأسلمتني زمام جوادها وعدنا إلى القصر في مركبة ، غير أنا سبقناها إليه إذ كانت فضلت السير على الأقدام لقرب المسافة بين الغاب والمثوى ، ولتذهب الروع الذي أصابها من

(١) يقول خادم السفرة Madame la Comtesse est servie أي تمت لها الخدمة باعداد المائدة

« حنجلة [١] » الحصان . فلما بلغنا ساحة الدار بصرنا بمركبة وخبّرنا أن رجلا في انتظارنا بغرفة المطالعة ، فسألت قبل صاحب القصر من هو وما اسمه فقيل لي : إنه أبى أن يتسمى واكتفى بقوله إن له مع الكونت حديثاً في مسألة خطيرة ، فلم أرتب طرفة عين في أنه عدونا استبطأني فجاء يتقاضى روح صاحبي من زوجته ومني . فأسرعت إلى الغرفة فألفيت في الظلام رجلا أشمط أغبر لا عهد له بحاق ذقنه منذ أسبوع ، وكان واقفاً قرب صُفةِ الموقد فدنوت منه وتفرست في وجهه وإذا ظني لم يخطئ قيد شعرة : سيلفان نفسه ! !

فصحت قائلاً : سيلفان ! ولا أنكر أني أحسست إذ ذاك أن شعر رأسي يقف وينتصب ، فما أدراك بحال الكونت ! ولكن سيلفان كان لبقاً وخبيثاً ، فلم يبد حقده عليّ بعد أن تركته يتقلى ، وقنع بأن حدجني بنظرة أبلغ من العتاب وأشأم ، تفسيرها : لقد طاب لك المقام يا غادر ؟ وليتك على الأقل لم تُفضِ بسري . وبادره الكونت بالتحية ودعاه إلى الراحة والاستحمام والعشاء . فأجابه :

— ما لهذا جئت أيها السيد النبيل ، فإن مأموريتي لا تمكنني من قبول ضيافتك . والرجل لا يؤاكل من يعزم مصمماً على قتله

فقال الكونت متجاهلا : على رسلك ! استرح أولا ثم افعل ما شئت فإن في الوقت سعة

فقال سيلفان وهو يحرق الأرّم : إن لي عليك طلقة ، وقد أتيت أطلقها فهل أنت مستعد ؟ وكنت من فرط هلعي وروعتي لا أفكر إلا في مقدم الكونتيس أرجوه وأخشاه

(١) الحنجلة كالزعزعة والخلخلة والمضمضة

وكان مسدس سيلفان بارزاً من جيبه . وكأنني قد صعقت واستحلت صخراً لا أملك أن أفوه بكلمة ووددت لو أنقض على هذا الشيطان المتجسد رجلا لأعدمه الحياة بحجة الدفاع عن النفس أمام الخطر المؤكد . ولكن الغدر لم يكن من طبعي . وكان الكونت أسرع من البرق قد قاس اثنتي عشرة خطوة وأخذ موقفه في أحد الأركان ورجا خصمه أن يسرع باطلاق مسدسه عليه قبل قدوم زوجته. فتردد سيلفان لحظة عاد إليّ فيها بعض الرجاء ، ولكنه طلب نوراً فأحضرت الشموع وأغلقت الأبواب ، وأمر الكونت ألا يدخل علينا أحد ثم رجاه أن يطلق مسدسه . فاستخرج سيلفان المسدس من جيبه ثم صوبه نحو صدر صديقي وسدده وكنت أعد الثواني . وتذكرت الكونتيس ونحن في تلك الحجرة التي كانت روضة من النعيم فانقلبت في لحظة قاعة للاعدام . وصرت بي دقيقة أهول من يوم القيامة وعند ذلك فتح الله عليّ وحلت عقدة من لساني ونطقت متلطفاً :

يخيل إليّ أن هذه ليست بمبارزة ، ولكنها جريمة قتل مصحوبة بسبق الإصرار والترصد . وأنت يا صاحبي سيلفان لم تتعود والله أن تفاجيء بتسديد سهامك إلى صدر رجل أعزل أو رأسه .

فخفض الشيطان يده وقال :

— بماذا تفتي إذن وأنت صديق الطرفين ، كما أرى ؟ ولا أخفي عنك أن الكونت رماني وأخطأ فالدور عليّ . قلت : أولى لكما أن تبدآ الأمر من أوله مرة أخرى وإن كان مديناً لك بطلقة :

فقال : نزلت على إرادتك ، فهيا بنا نعيد القرعة لنعين البادئ ، فأحسست كأن الأرض تميد بي وتتأرجح . ثم إنهما حشوا مسدسيهما ، وعملنا القرعة ثم اقترعا فوقعت للكونت النوبة الأولى كما حدث في القرعة السالفة[1] ففرحت بغتة ، ثم عدت فذكرت الفرق بينهما في الرماية فان صاحبي مضى عليه أربع سنين لم يتمرن خلالها مرة ، أما خصمه فكانت الرماية غذاءه اليومي

وقال سيلفان عند ظهور القرعة : ما أسعد حظك يا كونت ! وتناول هنري مسدسه وأطلق فأخطأه وقال : الحمد لله إنها لم تصب ضيفي ؛ فاني أفضل الموت لنفسي على أن أمس شعرة من رأس من أقبل عليّ زائراً ولو كان مصمماً على قتلي . وكنت أعتقد صاحبي مخلصاً في قوله . وتمنيت لو تصل تلك الكرمة إلى أعماق قلب سيلفان فيخجل ويعدل ، ولكن أنى لأنسال ابليس أن تصفح أو تنسى ؟ فقد رأيت سيلفان كأنه الشيطان فرفع يده بالمسدس يسدده ... وفي تلك اللحظة فتح الباب بغتة ودخلت الكونتيس ، فأبصرت وجهها يتوهج من الوجد توهج القبس المشتعل . أما الكونت فقد عاد وجهه من تأثره أبيض من منديله . وصاحت الزوجة الشابة صيحة منكرة وألقت بنفسها على عنق زوجها ، فأعاد حضورها إلى زوجها كل قوته وجلده وقال لها : مابالك ياحبيبتي ! ألا ترين أننا نمزح ؟ ما أشد فزعك ورعبك ! إذهبي فاشربي كوبة ماء ، وعودي إلينا فسأقدمك إلى صاحبي القديم وزميلي . فلم تفلح كلماته هذه في إزالة الشك منها وبقيت مرتابة حيرى فالتفتت إلى سيلفان الرهيب وقالت له :

— خبرني بالله أحقاً ما يقول زوجي ؟ أحقاً أنكما تمزحان ؟ إن غريزتي لا تخطئ في رعبي

(١) هذا يؤيد رأينا في قانون المبارزة الذي يقتضيه السياق

وكانت كلمات لو قيلت لصخر لذاب وتفتت ، ولو قرئت على حديد للان وسال

ولكن سيلفان الذى لم يعرف قلبه الشفقة قال :

— إن زوجك يا سيدتى لا يزال يمزح ، فلقد لطمنى مرة على حر وجهى وهو يمزح ، وأطلق علىّ رصاصة أنفذها فى قبعتى وهو يمزح . والآن إذا رمانى فأخطأنى إنما كان يمزح ، فلا حرج علىّ الآن إذا رأيتنى أيضاً أريد أن أمزح

وعلى أثر هذه الكلمات رفع مسدسه ليسدده إلى صدر صاحبى فألقت الكونتيس بنفسها على قدميه فغلى الدم فى عروقى وهممت أن أنشب أظفارى فى عنقه حتى تزهق روحه قبل أن يشهد زوجها مصرع كرامتها ولكن الكونت تعجلنى بنظرة غاضبة وصاح بها :

— انهضى يا مائيلده أما تستحين ! أما تخجلين ؟ وأنت يا سيدى هلا كففت عن السخر والاستهزاء بامرأة ضعيفة مسكينة ؟ مسكينة ! خبرنى أأنت مطلق أم ممسك ؟ فقال سيلفان : بل مطلق

وفى تلك اللحظة أطلق ، وأصاب الكونت فى رأسه ، فخر صريعاً وكانت الزوجة قد أغمى عليها من الذعر وهمّ سيلفان بالخروج بعد أن انحنى يحيينى فقلت له : مكانك واقترع . وخرجت القرعة لي : فتناولت مسدس الكونت وصوبته وأطلقت طلقة عجلاء سبقتنى إلى تسديدها يد العناية واخترمت صدره . وتكوّم كالأفعى وخلصت إلى ساحة القصر وناديت الخدم والحوذى الذى جلبه ونقلنا الكونتيس إلى فراشها وعهدت إلى وصيفتها أمر العناية بها حتى يدركها الله بلطفه والطبيب بعلاجه . وركبت المركبة فانطلقت بى قبل أن أستفيق من تلك الغمرة ، إلى دار المحافظة فحييت الضابط المنوب وأفضيت إليه بكل ما جرى . فدوّن أقوالى وانتقل إلى مكان الحادثة وطلب من قاضى التحقيق أن يفحص الاتهام ويمحص الأدلة . وشهد خادمان بما جرى كما رويته ، فأطلق سراحى وقرر بأن لا وجه لاقامة الدعوى فقد كانت المبارزة مباحة فى الفرق بين رجال الجيش . وقال قاضى التحقيق وهو يهنئنى بالنجاة من غدارة ذلك الوحش القاسى : دقة بدقة . إن القانون فوق العرف ، والعدل فوق القانون . وبعد شهر علاج وعناية فائقة ، استعادت الكونتيس وعيها وقوتها . وكانت إجازتى قد انتهت فاستأذنتها في الانصراف ، وأنا أحسب أنها تقرن مقدمى عليها بشر ما أصابها فى أعز إنسان لديها . ولكنها استمهلتنى واستبقتنى قائلة : لقد فقدت بعلى وحبيبى ، ولم يكن لك فى مصابه يد ، بل لقد تأثرت له فى التو والساعة ؛ وياليتك سبقت القدر بمسدسك إلى خصمه وخصمك

ولكننى علمت أنها تكون جناية قتل لا مبرر لها ، وأن المرحوم لم يكن ليغفرها لك لما أعلمه من إبائه الغدر بطبعه ، فان شئت جددت إجازتك ولو أياماً معدودة .

قلت لها : بأى عذر ؟ وإن إجازة الضابط لا تمتد إلى أكثر من ثلاثين يوماً ، إلا لعلة واحدة . قالت : وما هى ؟ قلت : الزواج . قالت : فليكن هذا عذرك على بركة الله . قلت : إنها لأكذوبة غليظة فلا أنتوى أن أعقد على عروس لم أختبرها وما زال قلبى خالياً . قالت : من يدرى ؟

فاكتفيت بهذا التلميح وطفر قلبى فرحاً . وتناولت قرطاساً وقلماً وكتبت طلبى ، فقالت وهى تداعبنى مداعبة حزينة

— وإن سألوك عن اسم تلك التي ستسعد بمعاشرتك ، أولا يسألونك ليشاركوك أفراح زفافك ؟

— قلت : هذا الذي لا أعلمه وكاد القلم يقع من يدي . قالت : أكتب : الكونتيس بورنيواه دي لافيسيل لافيه ! فأهويت على وجهها ويدها وعنقها أقبلها وأشم رائحتها العطرة ، وأذرف الدمع السخين من فرط سعادتي وحزناً على سالفي . وهنا سكت ادوارد يبون ، فظننت أنه وصل إلى آخر القصة ولكنه عاد فقال : « وقد قضينا ثلاث سنين أسعد ما يكون زوجان وأدهشتني سرعة النسيان الذي جر ذيوله على ذاكرة الزوجة . وكنت أغالب نفسي كلما شعرت باللوم يتعثر في مخيلتي ، فإنها لم تنس قرينها ، إلا بسببي . والمرأة إن فقدت الأمل في أحب رجل إليها ، فإنها بحكم الطبع والطبيعة ، تبادر إلى التنقيب عن غيره لتتعلق به ، وقد عشنا في جو من الصفاء والحب لم تشبه شائبة ، غير أنها كانت أحياناً ترى مني فيما يرى النائم أشباحاً ترعبها فتنهض مذعورة تبكي . فاذا ما فتحت عينيها ورأتني بجانبها عاودها اطمئنانها والتصقت بي ، كما يلصق الطفل الخائف بصدر أمه . وقد أدهشني أنها كانت تحتفظ بكل ما في القصر من ذكريات المأسوف عليه زوجها الراحل ، فقيدي وفقيدها ، فهذه صوره الفخمة في البهو وغرفة الطعام ، وتلك ثيابه الغالية وبزته العسكرية على المشجب ، وكتبه وأوراقه لا تزال حيث تركها ليلة مصرعه ، وخيله المطهمة ما تزال في اصطبلها العامر بأمهر السائسين وأجود العلف

وفي يوم من الأيام نهضت زوجتي وجمت الخدم في قاعة الاستقبال وأمرتهم أن يقلبوا القصر رأساً على عقب ، فنقلوا تصاوير المرحوم وثيابه وأسلحته وكتبه وأخفوا كل ما كان يذكرها بشخصه ؛ وقالت لي وهي ترتجف : قد آن لرب الدار أن يحل منها محله ، كما حل من قلب زوجته ؛ فامتعضت في قرارة نفسي ولكنني وافقتها في تنفيذ مشيئتها وقديماً قالوا : « إرادة المرأة من إرادة الرب[1] » والقول قولك وأنت الآمرة الناهية في قصرك

وبعد هذا الانقلاب بشهر واحد ، صحوت من نومي وكنت أعتزم أن أصحبها في نزهة خلوية فقبلتها قبلة الصباح ، ولكن شفتيّ ارتدتا جامدتين فقد كانت جثة هامدة وقد أسلمت الروح ، على ما زعم الطبيب أثناء النوم ، بعد رؤيا فاجعة سببت بغتة وقف دقات القلب . ومضت على هذه الحوادث أعوام كانت أمرّ وأدهى ما حييت من العمر ، فاشتغلت بالزراعة وجعلت أثناء ذلك آسف على ما فات من لذة العيش في الجندية ، وآسى على ما سلف من حياة الزواج والحب . أما زوجها الأول وخصمه الذي قتله ، فقد دفنا متجاورين

محمد لطفي جمعة

(١) مثل فرنسي سائر Ce que femme veut, Dieu le veut

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً